الرسم المعاصر في العراق

بقلم . النعيم

قام فنانو العراق في الربيع الماضي بالطواف في انحاء الهند مع معرض يضم رسوماتهم ،وكانت تلك المرة الاولى التي يقوم فيها فنانون من ذلك البلد بتقديم عمل جماعي للعالم خارج دائرة معارفهم المحصورة في عاصمة بلدهم .

وليس للعراق تقاليد موروثة في الرسم ، وقد كان الاعتقاد السائد والمسلم به ، حتى الوقت المتاخر الذي تم فيه اكتشاف بعض الرسوم الجدارية الجصية للحيوانات في عاصمة الخلافة القديمة سامراء ، بان هذه البلاد لم تمارس الفنون التشكيلية منذ بداية العهود الاسلامية ، باستثناء ما كان يقدمه في بعض الاحيان الفنان المستورد من بلاد فارس .

واي كان صانع المصورات الجدارية القديمة ، فانه لم يتـــرك وراءه مدرسة ما • ولذا فان رسامي اليوم يملكون الفرصة لاســـتغلال هـــذا المجال ، منافسهم الوحيد في الفنون التزينية اعلان الكوكاكولا البراق • الا ان ضخامة هذه الفرصة المتوفرة ، وغياب التقاليد التي يستطيع الفنانون الرجوع اليها او الثورة ضدها ، تسبب تشويشا لهم •

والعراق ، برغم موقعه الشرقي انما هو جزء من النظام الغربي ،ولهذا فمن الطبيعي ان ينظر الفنانون للغرب طلبا للتوجيه بدل النظر الى المدرسة الشرقية الاصفهانية المتضعضعة ، حيث يتولى الامام الاكبر الاشراف الروحي على معمل صناعة النمائم الفنية الايرانية المصغرة ، التي لا تزال تصنـــع باسلوب بطل طرازه منذ اربعة قرون مضت • الا ان اتجاه الفنانين صوب الغرب يجعلهم بمواجهة مشكلة اكثر تعقيدا من تحجر جيرانهم الشرقيين ، فالذي يشهده الغرب حاليا الا يتمثل في بطلان تقليد فني ما ، وانمـــا في سقوط عدد من التقاليد • والرسم الغربي ، سواء اعتبر في تداع او في شباب منبعث ، فانه من المؤكد ، يمر في فترة انتقال • وعدم الاستقرار هذا انما يشكل اساسا قلقا لمدرسة رسم وطنية في بلد يسير نحو النمو والتطور السريعين •

ويتمركز الرسم في العراق في عاصمته بغداد وفي معهد الفنـــون الجميلة الذي تأسس عام ١٩٣٦ • واساتذة المعهد ، وكلهم من الشباب ، اللذين درسوا في لندن وباريس وروما منذ ١٩٣٦ • لذا فعمر الرسم الحديث في العراق هو ٢٥ سنة ، وهو لا يزال في دور المغامرة والحذر في هذه المرحلة التجريبية •

ومشكلة الفنان في العراق لا تكمن فيما يرسمه ، فللاختيار مجال جديد غير مستغل بعد ، ولكن في كيفية رسمه ، وفي مقدار ما يأخذه من التقاليـــد الغربية ومقدار ما يستطيع تكييفه منها وطريقته في ذلك ، ثم مدى مـــا يرفضه منها •

وتتراوح حلول الفنانين البارزين بين الاسلوب الاكاديمي المعـــدل لحافظ الدروبي وانطباعية عطا صبرى والخيالات الدقيقة لجواد سليـــم وبدائية فائق حسن •

ومن بين هؤلاء الفنانين يحضى حافظ الدروبي ، كفنان اكاديمي ، بالاحترام ويعتبر عميد الرسم في العراق •

ان مناظره الطبيعية ، باضائتها الصافية الواضحة ، ودقة تفاصيلها، تذكر المرء بعض الشيء برسامي كوتسولد ـ Cotswold ـ ، وهـــي تمنح شعورا بالبهجة الهادئة • أما صوره الخاصة بالزهور • فذات اسلوب انطباعي وتمتاز بالغنى والعمق ، وهي توحي بانه قد يكون سائرا نحـــو تغيير اسلوبه المبكر بآخر اقل تحديدا •

اما عطا صبري ، الذي سيذكر كرئيس لمعرض هامبستيد في الهـواء الطلق عام ١٩٤٩ ، فانه يتميز بسيزان وتتميز رسومه بالجرأة والتنوع وهو أمر يلائم معالجته الجديدة لمناظر الجبال الحمراء المتكسرة لشـمال العراق • ومن المؤسف حقا ان انتاجه قليل ، فهو كغيره من اساتذة معهـد الفنون الجميلة مجبر على قضاء الوقت الذي يجب ان يرسـم فيـه ، في التدريس •

اما خالد الجادر ، الفنان الخصب حقا والطليق الحركة الذي رجـع مؤخرا من باريس ، فقد اقام معرضا شخصيا لاعماله المنجزة في السنوات الخمس الماضية •

وقد اثار المعرض حماسا ملحوظا لما تميز به من براعة وامتياز فني • ان مناظره الطبيعية التي تشمل اشخاصا ايضا تتميز باضاءة معتمة ، وقد يكون الفنان متأثرا من هذه الناحية بسيكيرت Sictert ، ولكنهـا تظهر بوضوح بان معالجة الجادر للمناظر الطبيعية هو اكثر المعالجـات دراميتيكية مما نراه عند اي فنان عراقي آخر •

ومن اعماله التي تثير الاهتمام بصورة متساويـة ، سلسلة صوره المرسومة بالحبر الصيني والقصبة • ان الاصالة والتنظيم والرقة التي تمتاز بها هذه الرسومات تجعلها في تضارب حاد مع لوحات الصالون الزيتيـة التقليدية •

ولوحات هؤلاء الفنانين الثلاثة لن تبدو غريبة عند عرضهـا في اي معرض غربي •

وهناك مجموعة اخرى من الفنانين الذين تساهم اعمالهم بشـكل مباشر في تطوير اسلوب وطني مستقل • واكثر من يشتهر من هـؤلاء جواد سليم ، وهو نحات ورسام ، وقد حصل على شرف الفوز بجائزةمسابقة « السجين السياسي المجهول » من بين جميع من دخلوا المسابقة مـن الشرق الاوسط • وكرسام وخطاط ، فانه قد تعلم الكثير من بيكاسو وبراك • ان الخيال والذكاء اللذان يميزان رؤيته للمشهد العراقي – نساء ذوات عباءات وعيون واسعة ، وانحناءات مذهلة ، واوساط شفافة ، ومدعوي ولائم تكاد تنحدر رؤوسهم عن اكتافهم لفرط استغراقهم في مباهج الطعام – ويمكن مشاهدة هذه الرسوم بألطف أشكالها ضمن مجموعة الصور المرافقـة لترجمة ديسموند ستيوارت للشعر العربي الحديث في « كتابة عالم جديد » – ١٩٥٤ –

واذا كانت طريقة تناول جواد سليم للمشهد الوطني عن طـريق الاسلوب الرفيع المنمق ، فان فائق حسن يفعل ذلك عن طريق ، البدائيـة الجديدة ، وهو يطأ ذلك الطريق الذي يشبه حد السكين ببساطة وقـوة ان تصاميمه تمتاز بالبساطة التامة مع الخط الغليظ الـذي يذكرنـا

براؤول Rouault ، وكذلك بالالوان الفنية والسهولة التي نراها عند دوفي Dufy

ان رسومه حول حياة القرية فيها انفجار مكبوت وحزن يمتاز بالمأساوية حينا وبالخفة حينا اخر • وهناك شيء من (فلامينك) ايضا في هذه الرسوم ومع هذا فقائق حسن فنان يميل الى خلق وحدة متكاملة ولا يميـــل الى الانتقاء •

ويتردد المرء في مقارنة فناني هذا البلد على حساب بعضهم البعض في هذه المرحلة من النمو الفني ، ولكن يجب ان لا يكون من التحيز ان نقول بان فائق حسن يرسم باكبر قوة عاطفية متناغمة • والفنان الذي يرافقـــه في أهدافه وان كان اكثر ميلا الى العقل من العاطفة في اهدافه واكثر تأثـــرا براؤول هو اسماعيل الشيخلي ، الذي عرض مؤخرا سلسلة من الطبعـــات الحجرية Lithographs المزخرفة التي تمثل الشوارع والمقاهي وجاموس المـــاء •

ومن الفنانين الاخرين الذين يمارسون الاسلوب التجريبي شاكرحسن الذي نرى في عمله ايضا تأثير راؤول ، ويعبر في احسن حالاته عن حالـــة من الالم السلبي ، وهو الامر الذي يلفت الانتباه عنـــد هؤلاء الفنانيـــن الانبساطيين وهم :

لورنا سليم التي تعتبر مواهبها المغروسة في العراق متماشية تماما مع الحركة الجديدة • وفاضل عباس الذي يتخصص في المشاهد المكتضة التي تصور حياة الكباريه العربي ، ومحمود صبري وهـــو من معجبي كوكوشكا Kokoschka وراؤول ومتأثر بالسياسات الراديكاليـــة في رسمه للصور المتقدة التي تمثل الشارع والماخور ،

ونزيهة سليم رسامة الجوامع الاكثر تأملا ، واكرم شكري الـــذي يسير في تجاربه مع المواضيع البابلية والاشورية ،

وطارق مظلوم الذي يستوحي رسومه من المصورات الجدارية للعصـــر الحجري الحديث ، وكاظم محمد حيدر الفنان الشاب الذي يرسم بالالوان المائية ويمتاز بالحساسية والموهبة التي تبشر بالخير •

واذا ما استثنينا استغلال الفنانين للمواضيع الاثرية ، فاننا مـــن النادر ان نجد في الرسم العراقي الحديث مؤثرات ترجع الى ما قبل سيزان ، اما التأثير الاكبر فهو لبراك وبيكاسو وراؤول وبشكل اقل (دوفي Dufy وكوكوشكا •

وبما ان هذه المؤثرات لا تزال في دور الاستيعاب ، فان انطباع الناقد قد يكون : اعتبار الرسامين في العراق غير متأكدين من انفسهم بعـــد ، وبسبب عدم توفر الاقتناع التام او الهدف ، فان الفنانين الشباب يميلون

الى الخطأ في اعتبارهم الاساليب الغربية كشيء مساو للقواعد التى جعلت من هذه الاساليب شيئا مقبولا ٠

ولكن مثل هذا الحكم لابد ان يصحح ، وخاصة اذا ما تذكرنا كم هي جديدة تلك الحركة وما مقدار ما قدمه الفنانون المعروفون لحد الان في خلق الفن الجديد في الوطن ، ومقدار ما يملك هؤلاء وتلامذتهم من الحماس لتكريس انفسهم لمهنة غير مربحة ، وما يراه المرء من الاشراق والقوة التي تمتاز بها اعمالهم ، وما يسمعه من النقد المادح من جمهور يكبر وينمو بسرعة ٠

ترجمة احلام مصطفى كامل
عن مجلة « استديو » كانون الثاني ١٩٥٦